المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى
في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

مظاهر تعظيم الله تعالى في نحو سيبويه

اسم الباحث

أ.د/ نصر الدين وهابي

د. نصر الدّين وهّابي

مظاهر تعظيم الله تعالى في نحو سبيويه

مقدمة

إنَّ مِن أَوْجبِ الواجبِ علىٰ الـمُؤْمنِ أنْ يُعظِّمَ رَبَّهُ بِما أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِعْمةِ الخلقِ مِنَ العَدَم، وبما أَكْرَمَهُ مِن فَضْلِهِ بواسِعِ النِّعَم، ويَزْدادُ هذا الوُجوبُ في حقِّ العُلَماءِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُم أَخْشىٰ النّاسِ لله، وأَعْرَفِهم بما يجبُ لله، تَعالىٰ، مِنَ التَّعْظيم؛ قالَ تَعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقالَ ابنُ القيّم عَنْ مَنْزلةِ التَّعْظيم: «**هَذِهِ المَنْزلةُ تابعةٌ للمَعْرفَة، فعَلىٰ قَدْرِ المَعْرفةِ يَكونُ تَعْظيمُ الرَّبِّ، تَعالىٰ، فِي القَلْب، وأَعْرَفُ النّاس بِهِ أَشَدُّهُم لَهُ تَعْظيمًا وإِجْلالًا، وقَدْ ذَمَّ الله، تَعالىٰ، مَنْ لَمْ يُعَظِّمْهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، ولا عَرَفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، ولا وَصَفَهُ حقَّ صِفَتِهِ**»[1].

ثُمَّ إنَّهُ لَـمّا كانَتِ اللُّغةُ مَدْخلًا أَساسًا لِفَهْمِ الدِّينِ، كانَ اللُّغَويُّونَ، والنُّحاةُ، مُيَسَّرينَ، أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِم، إِلىٰ رَعْيِ حَقِّ الله، تَعالىٰ، في التَّعْظِيم؛ فإنَّ تَعْظيمَ الله مِنْ جِنْسِ العَمَلِ بالدِّين، والعَمَلُ بالدِّينِ سَبِيلُهُ العِلْمُ الصَّحِيحُ بِهِ، والفَهْمُ الحَقِيقُ لَهُ. وسِيبَوَيْهِ إِمامُ النُّحَاةِ، وزَعِيمُ اللُّغَوِيّين، وهُوَ، بِذَلكَ، مِنْ أَكْثَرِ النَّحْوِيّينَ، أَنْفُسِهم، تَيْسيرًا لِفَهْمِ دِينِ الله الـمُوصِلِ لِتَعْظِيمِ الله، ولَقَدْ رَأَيْنا مِنْ ذَلِكَ، في عِلْمِهِ، وُجوهًا شَتّىٰ، في مُسْتَوَياتٍ شَتّىٰ، حتّىٰ لَكَأَنَّ نَحْوَهُ، ذاكَ، ما كانَ إِلّا آلَةً واصِلةً لَهُ بِرَبِّهِ، وكَأَنَّ مَقامَهُ مِنَ العِلْمِ بِهَذا النَّحْوِ ما كانَ إِلّا مُكافَأَةً مِنَ الله، تَعالىٰ؛ لِتَقْواهُ، وَوَرعِهِ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ولَكِنَّ بحثًا في هَذا الـمَعْنىٰ يَمُرُّ، وُجوبًا، بِأَسْئلةٍ مِنْ مِثْلِ:

- **ما مِقْدارُ التَّرْبيةِ الدِّينيَّةِ في نَشْأةِ سِيبَوَيْهِ؟**
- **ما حَظُّهُ مِنْ عُلومِ الشَّريعةِ، والفِقْهِ؟**
- **هَلْ للبَاحِثِ أَنْ يَقِفَ علىٰ شَواهِدَ كافِيةٍ، في كِتابِ سِيبويهِ، علىٰ تَعْظيمِ الله تَعَالىٰ؟**
- **هَلْ تَتَجاوَزُ هَذِهِ الشَّواهِدُ مُسْتَوىٰ العِباراتِ التَّعْظِيمِيَّةِ التي يَقولُها كُلُّ مُسْلِمٍ إِلىٰ مُسْتَوىٰ مَنْهَجِهِ في عِلْمِهِ؟**

إِنَّ، في هَذِهِ الوَرَقةِ، سَعْيًا إِلىٰ الإِجابَةِ علىٰ هَذِهِ الأَسْئِلة، قَصْدًا إِلىٰ ما يَلي:

- **إِبْرازُ جانِبِ الرَّبّانِيّةِ عِنْدَ إِمامِ النُّحاةِ الواجِبِ الائْتِمامُ بِهِ فِيهِ.**
- **تَأْكيدُ المَعْنىٰ التَّعبُّديِّ المُقْتَرنِ بالعِلْمِ في هذا الدِّينِ الحَنِيف.**
- **زِيادةُ التَّعْريفِ بِسِيبَوَيْهِ في واحِدٍ مِنْ أَهمِّ أُسُسِ شَخْصِيَّتِهِ العِلْمِيّة.**

---

(١) مَدارِجُ السَّالِكينَ (٢/ ٤٩٥).

• **أَوَّلًا: نَشْأَةُ سِيبَوَيْهِ الدِّينِيَّةُ:**

إِنَّ مُراعاةَ الـمَوْلىٰ، تَبارَكَ، وتَعالىٰ، وتَعْظيمَ حَقِّهِ في نَفْسِ عَبْدِهِ، هُوَ مَعْنًىٰ مَرْعِيٌّ، بِكُلِّ جَلاءٍ، في حَياةِ سِيبَوَيْهِ، بعامَّةٍ، وفي نَشْأَتِهِ الأُولىٰ، بخاصَّةٍ، وهُوَ مَعْنىٰ مَلْحوظٌ في غَيْرِ ما جانِبٍ مِنْ جَوانِبِ حَياتِهِ:

١- **التَّعْليمُ الدِّينيُّ**: يُشِيرُ كُلُّ مَنْ تَرْجَمَ لِسِيبَوَيْهِ إِلىٰ أَنَّهُ بَدَأَ الطَّلَبَ بالعُلوم الدِّينيَّةِ ثُمَّ تَحَوَّلَ، للقِصَّةِ الـمَعْروفة، إِلَىٰ العُلُوم اللُّغَوِيَّة[١]؛ ومِنْ ثَمَّ، فأَسَاسُ البِناءِ النَّفْسيِّ، والفِكْريِّ، والوِجْدانيِّ، عِنْدَ الرَّجُلِ، هُوَ بِناءٌ دِينيٌّ، يَجْعَلُهُ قَريبًا مِنْ رَبِّهِ في كُلِّ ما يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ. ولِتَفْصيلِ بَعْضِ هذا الـمَعْنىٰ نَقُولُ:

أ- **القُرْآنُ الكَرِيمُ**: إِنَّ ثَمَّةَ مُؤَشِّراتٍ عِدَّةً تَقْطَعُ بأَنَّ مَعْرِفةَ سِيبَوَيْهِ بالقُرْآنِ الكَريمِ عَالِيَة، تَبْدأُ بالحِفْظِ، وتَتَعدَّاهُ إِلىٰ العِلْمِ التَّفْصيليِّ بِهِ علىٰ القَدْرِ الذي يَبْلُغُ به مَرْتبةً عَالِيةً هِيَ مَرْتَبةُ النَّاقِلِ للقِراءَة، علىٰ ما سَنُفَصِّلُ القَوْلَ فِيهِ في مَوْضِعِهِ مِنْ هَذِهِ الوَرَقَةِ:

في تَرْجَمةِ سِيبَوَيْهِ، كمَا أَشَرْنا هُنَاك، أَنَّهُ بَدَأَ حَياةَ الطَّلَبِ بالعُلُوم الدِّينِيَّة، ولا يَتَهَيَّأُ هذا الطَّلَبُ بغَيْرِ الـمُرورِ بِحِفْظِ القُرْآنِ الكَريم حِفْظًا كامِلًا؛ يَقُولُ عَليُّ النَّجْديُّ ناصِفٍ، مُتَحدِّثًا عَنْ دِراسَتِهِ: «**هَبَطَ سِيبَوَيْهِ البَصْرةَ، والدِّراسَةُ الإِسْلامِيَّةُ نَوْعانِ: دِينِيَّةٌ، وأَدَبِيَّةٌ: وتَشْمَلُ الدِّينِيَّةُ القِراءاتِ، والتَّفْسيرَ، والحَديثَ، والفِقْهَ، وتَشْمَلُ الأَدَبِيَّةُ اللُّغَةَ، والنَّحْوَ، والصَّرْفَ، ورِوايَةَ الشِّعْرِ، وغَيْرَها، وقَدْ طَلَبَ سِيبَوَيْهِ، أَوَّلًا، عُلومَ الدِّينِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلىٰ عُلُومِ الأَدَبِ**»[٢].

وفي كِتابِ سِيبَوَيْهِ شَواهِدُ جَلِيَّةُ الدَّلالةِ علىٰ عِلْمِ الرَّجُلِ بالقُرْآنِ؛ فمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ، عَقِبَ بَعْضِ اسْتِشْهاداتِهِ القُرْآنِيَّةِ: «**وهَذَا في القُرْآنِ كَثيرٌ**»[٣]، ولا يَقولُ هَذا غَيْرُ عارِفٍ بالقُرْآنِ الكَريم.

وفي **الكِتابِ** ٤٧٧ آيةً قُرْآنِيَّةً[٤] تَكْفي نَظْرةٌ في فَهْرَسِهِ للشَّواهِدِ القُرْآنِيَّةِ لِيَجِدَ النَّاظِرُ أَنَّها مَأْخوذَةٌ مِنْ غالِبِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَريم، ومِنْ كُلِّ أَجْزائِهِ[٥]؛ وهُوَ أَمْرٌ دالٌّ علىٰ مَعْرِفَةِ سِيبَوَيْهِ بالقُرْآنِ الكَريمِ مَعْرِفَةَ إحاطةٍ، وإِلْمَامٍ. بَلْ إِنَّ مِنْ

---

(١) النَّحْوُ العَرَبيُّ، نَشْأَتُهُ، تَطَوُّرُهُ، مَدَارِسُهُ، رِجَالُهُ (١٩٥).

(٢) سِيبَوَيْهِ، إِمَامُ النُّحَاةِ (٨١).

(٣) الكِتَابُ (١/ ٨٩).

(٤) يُنْظَرُ: الْتِزامُ سِيبَوَيْهِ الدِّينيُّ؛ مَظَاهِرُهُ، وأَثَرُهُ (٢/ ٤٩٣).

(٥) يُنْظَرُ: الكِتَابُ، فِهْرِسُ شَواهِدِ القُرْآنِ الكَرِيمِ (٥/ ٧).

غَريبِ ما رَوَوْا في هَذَا أَنَّ أَبا عُثْمانَ الـمَازنيَّ كانَ قَدْ أَبىٰ أَنْ يَقْرأَ كِتابَ سِيبَوَيْهِ علىٰ يَهُوديٍّ لِكَثْرةِ ما فِيهِ مِنَ القُرْآنِ مَخافَةَ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ كَلامِ الله تَعالىٰ[١]، وفي مِثْلِ هَذا يَقُولُ الدُّكْتورُ عَبْدُ الله النَّغِيمشِي: «**يَظْهَرُ أَنَّ سِيبَوَيْهِ كانَ حَافِظًا لِكِتابِ الله، مُسْتَظْهِرًا لَهُ، ومَنْ يَنْظُرْ في كِتابِهِ بتَمَعُّنٍ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ، وهُوَ يَتَناوَلُ القَضايا النَّحْويَّة، قَدْ وَضَعَ المُصْحَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ**»[٢].

ب- **القِراءاتُ القُرْآنِيَّةُ**: وتَفْريعًا عَلىٰ عِلْمِ سِيبَوَيْهِ بالقُرْآنِ الكَريمِ نَعْرِضُ إِلىٰ عِلْمِهِ بالقِراءاتِ القُرْآنِيَّة؛ وأَبْرَزُ ما نَجِدُ، هُنَا، ما في تَرْجَمةِ ابنِ الجَزَريِّ لَهُ في كِتابِهِ (غَايَةُ النِّهايَةِ في طَبَقاتِ القُرَّاء)؛ قالَ عَنْهُ: «**إِمَامُ النَّحْوِ، رَوَىٰ القِراءَةَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو بنِ العَلاء، كَذا رَوَىٰ الهُذَليُّ، وهُوَ بَعِيدٌ، رَوىٰ القِراءَةَ عَنْهُ أَبُو عَمْرٍو الجَرْمِيُّ، واللهُ أَعْلَمُ**»[٣]. وقَدْ نَاقَشَ بَعْضُ الدّارِسِينَ اسْتِبْعادَ ابنِ الجَزَريِّ لِروايةِ الهُذَليِّ هَذِهِ؛ ومُعْتَمَدُهُم في الاسْتِبْعادِ ما نَقَلَهُ بَعْضُ الحُفَّاظِ؛ كالذَّهَبيّ، مِنْ أَنَّ الهُذَليَّ صاحِبُ أَغَاليطَ، ورِواياتٍ ضَعِيفةٍ كَثِيرة[٤]، لَكِنَّ هَذا مُقابَلٌ بما نَقَلَهُ كُلُّ مُتَرْجِمي الهُذليِّ مِنْ أَنَّهُ الرَّجُلُ الذي لَـمْ يَبْذُلْ عَالِـمٌ في جَمْعِ القُرْآنِ ما بَذَلَهُ؛ فهُوَ صَاحِبُ أَكْبَرِ رِحْلةٍ في تَاريخِ الإِسْلامِ في لِقاءِ عُلَماءِ القُرْآنِ الكَرِيم، ومُعَلِّمِيه[٥].

وفي هَذَا الـمَعْنىٰ يَقُولُ الدُّكْتورُ إِدْريسُ مَقْبولٍ: «**فالهُذَليُّ، كَما هُوَ ظاهِرٌ، مِنَ المُجْتَهِدينَ المُكْثِرينَ في جَمْعِ القِراءاتِ، وهُوَ مَحْفوفٌ، فِي كُلِّ ذَلِك، بِأَسَانيدَ يَصْعُبُ تَعْميمُ حُكْمِ الذَّهبيِّ علىٰ بَعْضِها لِيَشْمَلَ ما نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وبِهِ يَضْعُفُ، عِنْدي، هَذا الاِحْتِمالُ، ولا يَتَرَجَّحُ**»[٦]، والبَاقي في الـمَسْألةِ هُوَ بَحْثُ مُوَافَقةِ سِنِّ سِيبَوَيْهِ لأَنْ يَأْخُذَ القِراءةَ عَنْ أَبي عَمْرٍو؛ وقَدْ حَقَّقَ فِيهِ الدُّكْتورُ مَقْبولٌ بِما انْتَهىٰ فِيهِ إِلىٰ تَرْجيحِ أَنْ يَكُونَ سِيبَوَيْهِ وَافَقَ مِنْ حَياةِ أَبي عَمْرٍو خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا؛ وهِيَ سِنٌّ تَسْمَحُ، مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الطُّمَأْنِينةِ، بأَنْ يَأْخُذَ عَنْهُ القِراءَة[٧]، كَما يَذْكُرُ عَلِيٌّ

(١) وَفَيَاتُ الأَعْيانِ (١/ ٢٨٤).

(٢) يُنْظَرُ: الْتِزامُ سِيبَوَيْهِ الدِّينيُّ؛ مَظَاهِرُهُ، وأَثَرُهُ (٢/ ٤٩٣).

(٣) غَايَةُ النِّهايَةِ في طَبَقاتِ القُرَّاءِ (١/ ٥٣١).

(٤) مَعْرِفةُ القُرَّاءِ الكِبارِ عَلىٰ الطَّبَقاتِ والأَعْصارِ (١/ ٣٤٩).

(٥) يُنْظَرُ مُفَصَّلًا في: (الإِمَامُ الهُذَليُّ ومَنْهَجُهُ في كِتَابِهِ الكَامِلُ في القِراءاتِ الخَمْسِينَ: ٧٩).

(٦) مَنْهَجُ سِيبَوَيْهِ في الِاحْتِجاجِ بالقِراءاتِ، ولَهَا (١٨).

(٧) مَنْهَجُ سِيبَوَيْهِ في الِاحْتِجاجِ بالقِراءاتِ، ولَهَا (١٩).

النَّجْديِّ ناصِفُ أَنَّهُ عَثَرَ في الكِتابِ نَفْسِهِ عَلىٰ ما يَثْبُتُ بِهِ نَقْلُ سِيبَوَيْهِ عَنْ أَبي عَمْرٍو، وذَلِكَ قَوْلُهُ: «**ورَأَيْتُ أَبَا عَمْرٍو أَخَذَ بِهِنَّ في قَوْلِهِ تَعَالىٰ:** ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ [هود: ٧٢]»(١). عَلىٰ أَنَّ الغَايَةَ، عِنْدَنا، هِيَ تَكْثيرُ الدَّلائِلِ عَلىٰ سَعَةِ عِلْمِ سِيبَوَيْهِ بِكَلامِ اللهِ، تَعَالىٰ، مِمّا لا يَصْلُحُ وَصْفًا لِغَيْرِ قَريبٍ مِنَ اللهِ، تَعَالىٰ.

ج- **الحَدِيثُ النَّبَوِيُّ الشَّريفُ**: غَيْرُ خافٍ أَنَّ الحدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّريفَ كانَ أَوَّلَ ما قَصَدَهُ سِيبَوَيْهِ بالتَّحْصِيلِ؛ قالَ القِفْطيُّ: «**كانَ سِيبَوَيْهِ، في أَوَّلِ أَيَّامِهِ، صَحِبَ الفُقَهاءَ، وأَهْلَ الحَدِيثِ**»(٢). بَلْ إِنَّ قِصَّةَ تَحَوُّلِهِ إِلىٰ العُلُومِ اللُّغَوِيَّةِ ما كَانَتْ إِلَّا في مَجْلِسِ حَدِيثي؛ قَالَ الزَّبِيديُّ: «**قَالَ أَبُو عَليٍّ البَغْداديُّ: وُلِدَ سِيبَوَيْهِ بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرىٰ شِيرازَ، يُقالُ لَهَا: البَيْضاءُ؛ مِنْ عَمَلِ فارِسَ، ثُمَّ قَدِمَ البَصْرَةَ لِيَكْتُبَ الحَدِيثَ، فَلَزِمَ حَلْقَةَ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، فَبَيْنا هُوَ يَسْتَمْلي عَلىٰ حَمَّادٍ قَوْلَ النَّبيِّ ﷺ: «لَيْسَ مِنْ أَصْحابي إِلَّا مَنْ لَوْ شِئْتُ لأَخَذْتُ عَلَيْهِ لَيْسَ أَبَا الدَّرْداءِ»، فَقَالَ سِيبَوَيْهِ: لَيْسَ أَبُو الدَّرْداءِ. وظَنَّهُ اسْمَ (لَيْسَ)، فقَالَ حَمَّادٌ: لَحَنْتَ، يا سِيبَوَيْهِ. لَيْسَ هَذا حَيْثُ ذَهَبْتَ. وإِنَّما (لَيْسَ) هاهُنا اسْتِثْناء، فقَالَ: سَأَطْلُبُ عِلْمًا لا تُلَحِّنُني فِيهِ. فَلَزِمَ الخَليلَ، فَبَرَعَ**»(٣). كَمَا تَظَافَرَتْ رِواياتٌ أُخرىٰ عَلىٰ أَنَّهُ ظَلَّ مُثابِرًا علىٰ طَلَبِ الحَدِيثِ، والبَحْثِ فِيهِ حَتّىٰ بَعْدَ قِصَّتِهِ مَعَ حَمَّادٍ هَذِهِ(٤).

٢- **لُزُومُهُ الخَليلَ بْنَ أَحْمَدَ**: والمَأْخوذُ بِهِ في هَذَا هُوَ أنّ سِيبَوَيْهِ -كَكُلِّ تِلْميذٍ- هُوَ امْتِدادٌ لِشَيْخِهِ، وتَفَرُّعٌ عَنْهُ، وأَبْرَزُ شُيُوخِ سِيبَوَيْهِ هُوَ الخَليلُ، وأَبْرَزُ ما يُمَيِّزُ الخَليلَ، في شَخْصِهِ زُهْدُهُ وعَفافُهُ وتَقْواهُ ووَرَعُهُ(٥)، ولَقَدْ نَقَلُوا في هَذَا رِواياتٍ كَثِيرةً، والأَدْنىٰ إِلَىٰ الفَهْمِ أَنَّ رَجُلًا في وَرَعِ الخَليلِ لا يَجْمُلُ بِهِ أَنْ يُورِثَ عِلْمَهُ، ويَعْمُرَ مَجالِسَهُ بِغَيْرِ ذِي وَرَعٍ وتَقْوىٰ مِثْلِهِ، فما بِسِيبَوَيْهِ مِنْ تَعْظيمِ لله تَعَالىٰ لَيْسَ غَيْرَ أَثَرٍ لِتَنْشِئةِ الخَليلِ لَهُ، ومَعْلومٌ أَنَّ للشَّيْخِ نَفاذًا كَبيرًا إِلىٰ نَفْسِ تِلْمِيذِهِ، ووِجْدانِهِ.

---

(١) الكِتَابُ (٣/ ٥٤٩)، وانْظُرْ: سِيبَوَيْهِ إِمَامُ النُّحَاةِ (٩٥).

(٢) إِنْبَاهُ الرُّوَاة (٢/ ٢٥٥).

(٣) طَبَقاتُ النَّحْوِيِّينَ واللُّغَوِيِّينَ (٦٦).

(٤) ينظر: سِيبَوَيْهِ إِمَامُ النُّحَاةِ (٨٠-٨١).

(٥) ينظر: النَّحْوُ العَرَبيُّ، نَشْأَتُهُ، تَطَوُّرُهُ، مَدَارِسُهُ، رِجالُهُ (١٦٥).

- **ثَانِيًا: مَظاهِرُ تَعْظيمِ الله تَعالىٰ في نَحْوِ سِيبَوَيْهِ:**

والـمُرادُ بهذَا كُلُّ ما يَدُلُّ عَلىٰ تَعْظيمِ الله، تَعَالىٰ، في نَحْوِ سِيبَوَيْهِ مِمَّا يُؤْخَذُ مِنْ كِتابِهِ، لا مِمَّا يُسْتَفادُ مِنْ الرِّواياتِ الـمَنْقُولَةِ؛ وهَذِهِ بَعْضُ تِلْكَ الـمَظَاهِرِ:

- **سَلامَةُ الاعْتِقادِ**[(١)]: مِنَ الـمَعْلومِ، لَدَىٰ الدَّارِسِينَ، أَنَّ النَّحْوَ عِلْمٌ واصِفٌ لِلُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيم، ومِنْ هُنَا جاءَتْ صِلَتُهُ الوَثِيقَةُ بالتَّفْسِير، بَلْ إِنَّهُ لا تَفْسِيرَ بِغَيْرِ العِلْمِ بالآلَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وهُوَ الذي مَكَّنَ غَيْرَ واحِدٍ مِنَ النَّحْوِيِّينَ، مِنْ ذَوي الآراءِ الكَلامِيَّةِ الـمُنْحَرِفةِ، مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ عِلْمِهِ بالنَّحْوِ آلَةً لِنُصْرةِ مَذْهَبِهِ، ولَكِنّا حِينَ نَنْظُرُ في نَحْوِ سِيبَوَيْهِ نَلْقاهُ بَرِيئًا مِنَ النَّزْعةِ الـمَذْهَبِيَّةِ، ومِنَ التَّعَصُّبِ للانْتِماءِ الكَلامِيِّ غَيْرِ السُّنِّيِّ[(٢)]؛ ومِنْ آياتِ ذَلِكَ:
- **عَدَمُ وَصْلِ البَحْثِ اللُّغَويِّ بِما وَراءَ المَادَّةِ الصَّوْتِيَّة**: وهُوَ واحِدٌ مِنْ وُجُوهِ لُزُومِهِ حَدَّ تَخَصُّصِهِ العِلْمِيّ، عَلىٰ ما سَنَذْكُرُهُ لاحِقًا، إِنْ شاءَ الله، والـمَعْنىٰ، في هَذَا العُنْوانِ، مُوَافِقٌ لِتَعْرِيفِ ابنِ جِنّي الشَّهِير: «**حَدُّ اللُّغَةِ أَصْواتٌ يُعَبِّرُ بِها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْراضِهِم**»[(٣)]، وسِيبَوَيْهِ، في دِرَاسَتِهِ النَّحْوِيَّةِ، إِنّما يَبْني أَحْكامَهُ عَلىٰ اللَّفْظِ، والـمَادَّةِ الصَّوْتِيَّةِ، دُونَ النَّفَاذِ إِلىٰ ما قَدْ يَتَلَبَّسُ بِها مِنَ الـمَعاني الـمُرَادَةِ لِغَيْرِ القُصُودِ التَّواصُلِيَّةِ الـمُحَايِدَة؛ فَفِي مَسْأَلَةِ الاسْمِ والـمُسَمَّىٰ، مَثَلًا، ذَهَبَ الـمُعْتَزِلَةُ، جَرْيًا

---

(١) قالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ: «فمَنِ اعْتَقَدَ الوَحْدَانِيَّةَ في الأُلُوهِيَّةَ لله، سُبْحَانَهُ، وتَعَالىٰ، والرِّسَالَةَ لِعَبْدِهِ ورَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يُتْبِعِ هَذَا الاعْتِقادَ مُوجِبَهُ مِنَ الإِجْلالِ، والإِكْرَامِ، الذي هُوَ حالٌّ في القَلْبِ يَظْهَرُ أَثَرُهُ علىٰ الجَوَارِحِ، بَلْ قَارَنَهُ الاسْتِخْفافُ، والتَّسْفِيهُ، والإِزْدِراءُ بالقَوْلِ، أَوْ بالفِعْلِ، كانَ وُجُودُ ذَلِكَ الاعْتِقادِ كَعَدَمِهِ، وكانَ ذَلِكَ مُوجِبًا لِفَسَادِ ذَلِكَ الاعْتِقادِ، ومُزِيلًا لِـما فِيهِ مِنَ الـمَنْفَعَةِ، والصَّلَاح». يُنْظَرُ: الصَّارِمُ الـمَسْلُولُ (١/ ٣٧٥).

(٢) قَالَ الرِّياشِيُّ: «**كانَ سِيبَوَيْهِ سُنِّيًّا علىٰ السُّنَّةِ**» (طَبَقاتُ النَّحْوِيِّينَ واللُّغَوِيِّينَ: ٦٨)، ومُرَادُنا هُنَا مِنْ نَقْلِ هَذَا: هُوَ النَّأْيُ بِسِيبَوَيْهِ عَنِ التَّعَصُّبِ للرَّأْيِ، واتِّبَاعِ الهَوَىٰ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ تَبْرِئَتِهِ مِنَ الانْتِسابِ لِطَائِفَةٍ إِسْلامِيَّةٍ؛ فإِنَّ الـمُعْتَزِلِيَّ -مَثَلًا- يُعَظِّمُ الله، إِنَّما التَّعَصُّبُ لِلْهَوىٰ هُوَ ما قَدْ يَجْعَلُ الرَّجُلَ لا يُرَاقِبُ رَبَّهُ في قَوْلِهِ بِقَدْرِ ما يَحْرِصُ علىٰ دَحْضِ حُجَّةِ خَصْمِهِ؛ قِيلَ لِأَبي بَكْرِ ابنِ عَيَّاشٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ ما السُّنِّيُّ؟ قالَ: الذي إِذَا ذُكِرَتْ لَهُ الأَهْواءُ لم يَتَعَصَّبْ لِشَيْءٍ مِنْها (شَرْحُ أُصُولِ اعْتِقادِ أَهْلِ السُّنَّةِ ١/ ٦٥، ومَنَاهِجُ اللُّغَوِيِّينَ في تَقْرِيرِ العَقِيدةِ: ١٦٨، والْتِزامُ سِيبَوَيْهِ الدِّينيُّ ٢/ ٤٩٠).

(٣) الخَصَائِصُ (١/ ٣٣).

علىٰ قَوْلِهِم بِـخَلْقِ القُرْآنِ، إِلَىٰ أَنَّ الاسْمَ غَيْرُ الـمُسَمَّىٰ، وأَنَّ الأَسْماءَ، والصِّفاتِ مَخْلوقاتٌ[١]، وقَدْ حَقَّقَ العُلَماءُ مِنْ عِلْمِ سِيبَوَيْهِ أَنَّهُ يَبْني التَّحْليلَ اللُّغَويَّ عَلىٰ أَنَّ الاِسْمَ غَيْرُ الـمُسَمَّىٰ لِـمَعْنًىٰ غَيْرِ الذي عَنَاهُ الـمُعْتَزِلَةُ، ومَنْ وَافَقَهُمْ[٢]، والـمَعْنىٰ أَنَّ حَقِيقةَ الاِسْمِ حَقِيقةٌ لَفْظِيَّةٌ (=حَقِيقةٌ صَوْتِيَّةٌ)، مُنْفَصِلةٌ عَنِ الـمُسَمَّىٰ، ويَصِحُّ أَخْذُ هَذا مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ في: (بابُ ما يَنْتَصِبُ لأَنَّهُ خَبَرٌ للمَعْروفِ الـمَبْنِيِّ علىٰ مَا قَبْلَهُ مِنَ الأَسْماءِ الـمُبْهَمَةِ): «**وإِذَا ذَكَرْتَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأَسْماءِ التي هِيَ عَلامَةٌ للمُضْمَرِ، فإِنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يَظْهَرَ بَعْدَها الاِسْمُ إِذا كُنْتَ تُخْبِرُ عَنْ عَمَلٍ، أَوْ صِفةٍ غَيْرِ عَمَلٍ، ولا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَهُ بأَنَّهُ زَيْدٌ، أَوْ عَمْرو**»[٣] ، فهُوَ، هُنَا، مَيَّزَ، بجَلاءٍ، بَيْنَ الـمُسَمَّىٰ واللَّفْظِ الذي هُوَ عَلامَةٌ لَهُ، يُمَيِّزُ تَمْييزًا يَجْعَلُهُ بَعِيدًا عَنْ أَنْ يَسُوقَ الـمَعْنىٰ لِرَأْيٍ مِنَ الآراءِ الكَلَامِيَّةِ غَيْرِ ما عَلَيْهِ عُلَماءُ السُّنَّةِ والجمَاعَة[٤]. كَمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ سَلَامةِ اعْتِقادِ سِيبَوَيْهِ وبَرَاءَتِهِ مِنَ الأَقْوالِ الكَلَامِيَّةِ الـمُنَافِيَةِ لِـمَا عَلَيْهِ الـمَأْثُورُ عَنْ رَسُولِ الله تَعَالىٰ، وصَحَابَتِهِ الكِرَام، أَنَّهُ لَـمْ يُعْثَرْ في كِتَابِهِ عَلَىٰ كَلَامٍ فِيهِ لَـيٌّ لِتَرْكِيبٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ لِـمَا يُفِيدُ رَأْيًا كَلَامِيًّا مُنْحَرِفًا عَنِ الـمَأْثُورِ؛ قالَ الدُّكْتورُ النُّغيمشِي: «**لَمْ يَرِدْ في كِتَابِهِ -أَعْني سِيبَوَيْهِ- فِقْرةٌ وَاحِدةٌ، بَلْ، ولا كَلِمَةٌ واحِدةٌ تَجْعَلُنا مِنْ خِلالِها نَحْكُمُ عَلَيْهِ بأَنَّهُ شِيعيٌّ، أَوْ مُعْتَزِلِيٌّ**»[٥].

- **تَعْظِيمُ لَفْظِ الجَلالَةِ**: ويُرىٰ ذَلِك في أَنَّهُ يُمَيِّزُ اسْمَ الله تَعَالىٰ عَمّا سِواهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ عَزَّ وجَلّ؛ قالَ مُتَحَدِّثًا عَنْ تَصَرُّفِ العَرَبِ في هَذَا الاسْمِ: «**قَدْ صَرَفُوا هَذَا الاِسْمَ عَلىٰ وُجُوهٍ لِكَثْرَتِهِ في كَلَامِهِم، ولأَنَّ لَهُ حالًا لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ**»[٦]. كَمَا نَجِدُ هَذا الاِسْمَ مُمَثَّلًا

---

(١) مَجْمُوعُ فَتَاوَىٰ ابنِ تَيْمِيَّة (٦/ ٢٠٢).

(٢) مَنَاهِجُ اللُّغَوِيِّينَ في تَقْريرِ العَقِيدةِ (١٧٣).

(٣) الكِتَابُ (١/ ١٣٢). وفي هَذَا بَيَانٌ لِبَراءةِ سِيبَوَيْهِ مِنَ الاِعْتِزال، خِلَافًا لِـمَنْ نَسَبَهُ إِلَىٰ الـمُعْتَزِلَة (طَبَقاتُ الـمُعْتَزِلَةِ: ١٣١)، كَمَا في غَيْرِهِ بَيَانٌ لِبَرَاءَتِهِ مِنَ التَّشَيُّعِ، خِلَافًا لِـمَنْ رَأَىٰ نِسْبَتَهُ إِلىٰ الشِّيعَةِ؛ فإِنَّ سِيبَوَيْهِ حِينَ ذَكَرَ عَلِيًّا في كِتَابِهِ تَرَضَّىٰ عَنْهُ، وِفَاقًا لِـمَذْهَبِ السُّنَّةِ، وعَلىٰ غَيْرِ العَادَةِ مِمَّا عِنْدَ الشِّيعةِ؛ وذَلِكَ قَوْلُهُم: عَلَيْهِ السَّلَامُ (الكِتَابُ ٢/ ٢٩٧، والذَّرِيعةُ إِلىٰ تَصَانِيفِ الشِّيعَةِ ١٧/ ٢٦١).

(٤) يُنْظَرُ مُفَصَّلًا في: مَنَاهِجُ اللُّغَوِيِّينَ في تَقْريرِ العَقِيدةِ (١٧٢).

(٥) الْتِزامُ سِيبَوَيْهِ الدِّينيُّ (٢/ ٤٩١).

(٦) الكِتَابُ (٢/ ١٩٧).

بِهِ عِنْدَهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ فِي التَّمْثِيلِ لِلِاسْمِ يَسْتَغْنِي عَنِ الفِعْلِ: «**والاِسْمُ قَدْ يَسْتَغْنِي عَنِ الفِعْلِ: تَقُولُ: الله إِلَهُنَا**»(١)، وفِي تَمْثِيلِهِ هَذا تَنْوِيهٌ بِأُلُوهِيَّةِ الـمَوْلىٰ، تَبَارَكَ وتَعَالىٰ، كَمَا يُسْتَفادُ مِنْهُ تَغْلِيبُ الاِشْتِقاقِ فِي تَفْسِيرِ اسْمِ الله، وأَنَّهُ مِنَ الإِلَهِ؛ والإِلَهُ الـمَأْلُوهُ؛ وهُوَ الـمَخْصُوصُ بالعِبادةِ دُونَ سِوَاهُ تَعْظيمًا لَهُ، عَزَّ وجَلَّ؛ قالَ سِيبَوَيْهِ: «**وكَأَنَّ الاِسْمَ -والله أَعْلَمُ- إِلَهٌ، فلَمَّا أُدْخِلَ فِيهِ الأَلِفُ واللَّامُ حَذَفُوا الأَلِفَ وصَارَتْ الأَلِفُ واللَّامُ خَلَفًا مِنْهُ**»(٢). كَمَا نَعْرِفُ مِنَ الـمَرْوِيِّ عَنْ سِيبَوَيْهِ قِصَّةَ مَنْ رَآهُ فِي الـمَنامِ، فقَالَ لَهُ: مَا حَالُكَ عِنْدَ الله؟ فقَالَ: قَدْ غَفَرَ لي، وأَدْخَلَني الجَنَّةَ؛ لأَنِّي جَعَلْتُ أَعْرَفَ الـمَعَارِفِ: «**الله**»(٣). وذَكَرَ الدُّكْتورُ النُّغِيمشِيُّ أَنَّهُ لَـمْ يَجِدْ ذَلِكَ فِي كِتابِ سِيبَوَيْهِ، وأَنَّهُ مِنَ الجائِزِ أَنَّهُ قَالَهُ فِي غَيْرِ كِتابِهِ، وهُوَ تَجْويزٌ سائِغٌ، إِنْ شاءَ الله(٤). ومِنْ تَعْظيمِ سِيبَوَيْهِ لاِسْمِ الله تَعَالىٰ قَوْلُهُ: «**واعْلَمْ؛ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَوْضِعٍ يَجُوزُ فِيهِ التَّعْظِيم، ولا كُلُّ صِفةٍ يَحْسُنُ أَنْ يُعَظَّمَ بِهَا، ولَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الكَلامِ يَكُونُ تَعْظِيمًا لله -عَزَّ وجَلَّ- يَكُونُ تَعْظِيمًا لِغَيْرِهِ مِنَ المَخْلُوقِين، لَوْ قُلْتَ: الحَمْدُ لِزَيْدٍ؛ تُرِيدُ: العَظَمَةَ، لَمْ يَجُزْ**»(٥).

- **الاِسْتِثْناءُ**: وهُوَ قَوْلُ: «إِلّا أَنْ شَاءَ الله»(٦)؛ ومَعْناهُ أَنْ يَجْعَلَ الـمُتَكَلِّمُ مَشِيئَةَ الـمَوْلىٰ -تَبَارَكَ وتَعَالىٰ- شَرْطًا لِـمَا سَيَفْعَلُ، أَوْ يَقُولُ: ودَلِيلُهُ قَوْلُهُ ﷺ لِضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ: «**حُجِّي، واشْتَرِطِي؛ فإِنَّ لَكِ عَلىٰ رَبِّكِ ما اسْتَثْنَيْتِ**»(٧). ونَجِدُ سِيبَوَيْهِ يَسْتَثْني فِي مَواضِعَ مِنْ كِتَابِهِ بِما هُوَ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ تَعْظِيمِ الله تَعَالىٰ الدَّالِّ علىٰ عَقِيدَتِهِ الصَّحِيحَةِ؛ يَقُولُ، فِي مُفْتَتَحِ كِتَابِهِ: «فهَذِهِ الأَمْثِلَةُ التي أُخِذَتْ مِنْ لَفْظِ أَحْداثِ الأَسْماء، ولَهَا أَبْنِيَةٌ كَثِيرةٌ، سَتُبَيَّنُ، **إِنْ شَاءَ الله**»(٨)، ويَقُولُ، فِي بَعْضِ وَعْدِهِ بالتَّفْصِيلِ:

---

(١) الكِتَابُ (١/ ٢١).

(٢) الكِتَابُ (١/ ١٩٥).

(٣) كِتَابُ مَعْنىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا الله (١٠٦). ويُنْظَرُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ: الْتِزامُ سِيبَوَيْهِ الدِّينيُّ (٢/ ٤٩٦).

(٤) الْتِزامُ سِيبَوَيْهِ الدِّينيُّ (٢/ ٤٩٨).

(٥) الكِتَابُ (٢/ ٦٩).

(٦) التَّحْريرُ والتَّنْويرُ (١٥/ ٢٩٥).

(٧) أخرجه النّسائيُّ (٢٧٦٦).

(٨) الكِتَابُ (١/ ١٢).

«**وسَتَرىٰ ذَلِك، إنْ شَاءَ الله**»[١]. وفي بَعْضِ وَعْدِهِ بالتَّمْثيلِ: «**وسَتَرىٰ مِثْلَ ذَلِك، إنْ شَاءَ الله**»[٢]. وفي الاِسْتِثْناءِ امْتِثالٌ لِأَمْرِ الله تَعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

- وقَريبٌ مِنْ هَذا قَوْلُ القَائِلِ: «**الله أَعْلَمُ**»، وهُوَ مِنَ التَّأَدُّبِ مَعَ الله تَعالىٰ، والرُّجُوعِ بالعِلْمِ إِلَيْهِ، والإِقْرارِ بعَجْزِ الإِنْسَانِ عَنْ أَنْ يَتَّصِفَ بالكَمالِ فِيما يَقُولُ، أَوْ يُفْتى، أَوْ غَيْرِ ذَلِك، قالَ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ في (**مُقَدِّمَةُ المَجْمُوع**)، وقَدْ ذُكِرَ فِيها جُمْلَةٌ مِنْ آداب الفَتْوىٰ: **قالَ الصَّيْمَريُّ: ولَا يَدَعُ خَتْمَ جَوابِهِ بقَوْلِهِ: وبالله التَّوْفِيق، أَوْ: والله أَعْلَمُ، أَوْ: والله المُوَفِّقُ**». **ولَيْسَ في ذَلِك تَشْكيكٌ في الحَديثِ، أَوِ الحُكْم الذي يَذْكُرُهُ المُفْتى، بَلْ حَتَّىٰ لَوْ كانَ العالِمُ مُصِيبًا في حُكْمِهِ، فإِنَّهُ ما مِنْ عَالِمٍ إِلَّا والله، تَعالىٰ، أَعْلَمُ مِنْهُ ، قال الله تَعالىٰ:** ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦]، وفي (كِتابِ سِيبَوَيْهِ) وَجَدْنا قَوْلَهُ: «هَذَا بابٌ مِنَ النَّكِرَةِ يَجْري مَجْرىٰ ما فِيهِ الأَلِفُ واللَّامُ مِنَ المَصَادِرِ، والأَسْماءِ: وأَمَّا قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات]، ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين]، فإِنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ تَقُولَ إِنَّهُ دُعاءٌ، ها هُنا؛ لأَنَّ الكَلامَ بِذَلِك قَبِيحٌ، واللَّفْظُ بِهِ قَبِيحٌ، ولَكِنَّ العِبادَ إِنَّما كُلِّمُوا بكَلَامِهِمْ، وجاءَ القُرْآنُ علىٰ لُغَتِهِم، وعَلىٰ ما يَعْنونَ، فكَأَنَّهُ، **واللهُ أَعْلَمُ**، قِيلَ لَهُمْ: وَيْلٌ للمُطَفِّفِينَ، وَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبِينَ؛ أَيْ هَؤُلاءِ مِمَّنْ وَجَبَ هَذَا القَوْلُ لَهُمْ»[٣]. ومِثْلُهُ القَوْلُ الذي سَاقَهُ في شَرْحِ اسْمِ الله تَعَالىٰ، قالَ: «**وكَأَنَّ الاِسْمَ، والله أَعْلَمُ، إِلَهٌ، فَلَمَّا أُدْخِلَ فِيهِ الأَلِفُ واللَّامُ حَذَفُوا الأَلِفَ، وصَارَتْ الأَلِفُ واللَّامُ خَلَفًا مِنْهُ**»[٤]، فَلا يَخْتَلِفُ اثْنانِ في أَنَّ رَدَّ العِلْمِ لله مِمَّا فِيهِ تَعْظِيمٌ لله تَعالىٰ.

- **الثَّناءُ عَلىٰ الله عِنْدَ ذِكْرِ اسْمِهِ**: وذَلِكَ قَوْلُ القائِلِ في حَقِّ الله تَعَالىٰ: «**سُبْحانَهُ وتَعَالىٰ**» و«**تَبَارَك وتَعَالىٰ**»، و«**جَلَّ ثَنَاؤُهُ**»، و«**تَعَالىٰ جَدُّهُ**»، وغَيْرُها؛ ولَقَدْ وَجَدْنا لِسِيبَوَيْهِ

(١) الكِتَابُ (١/ ٢١).
(٢) الكِتَابُ (١/ ٥١).
(٣) الكِتَابُ (١/ ٣٣١).
(٤) الكِتَابُ (٢/ ١٩٥).

الْتِزامًا بِذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ مَوْضِعٍ يَذْكُرُ فِيهِ اسْمَ الله، تَعالىٰ؛ تَعْظِيمًا لَهُ، ومُراعاةً لَهُ في عِلْمِهِ، علىٰ ما هُوَ مُحالٌ عَلَيْهِ، ها هُنَا، مُقْتَصِرًا فِيهِ علىٰ الجُزْءِ الأَوَّلِ فحَسْبُ:

- **قَوْلُهُ: «عَزَّ وجَلَّ»**: (١/ ٣٧، ٤١، ٥٠، ٥٦، ٥٩، ٧٤، ٨٩، ٩٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٦، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٣، ٢١٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٥٧، ٢٦٠، ٣٢٠، ٣٣٦، ٣٤٦، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٩٨، ٤٢٥، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٤٠).
- **قَوْلُهُ: «تَبارَك وتَعالىٰ»**: (١/ ٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٥، ٢٠١، ٢١٠، ٢٦٧، ٣٣٢، ٣٨١).
- **قَوْلُهُ: «سُبْحانَهُ»**: (١/ ٤٠، ٢٣٧، ٣٨٦).
- **قَوْلُهُ : «جَلَّ ثَناؤُهُ**: (١/ ١٥، ٨١، ١٢٢، ١٤٣، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ٢٣٧، ٣٢٦، ٣٨١).
- **قَوْلُهُ: «جَلَّ جَدُّهُ»**: (١/ ٦٥، ١٤١، ١٦٦، ٢١٢، ٢٣٧، ٣٣١).

ومِمَّا **يَلْحَقُ** بتَعْظِيمِ المَوْلىٰ -عَزَّ وجَلَّ- التَّنْوِيهُ بالصُّحْبةِ في ذِكْرِ مَنْ لَهُ صُحْبةٌ برَسُولِ الله ﷺ، وتَعْظيمُ الصُّحْبةِ مِنْ تَعْظِيمِ النُّبُوَّةِ، وتَعْظيمُ النُّبُوَّةِ مِنْ تَعْظيمِ الله تَعالىٰ؛ قالَ سِيبَوَيْهِ في سِياقِ تَمْثِيلِهِ ببَيْتٍ شِعْرِيٍّ: «**وقالَ الشَّاعِرُ؛ وهُوَ عَبْدُ الله بْنُ الحارِثِ السَّهْميُّ، مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ الله** ﷺ»[(١)].

- ومِمَّا يُلاحَظُ علىٰ سِيبَوَيْهِ في كِتابِهِ كَثْرةُ تَمْثِيلِهِ بالاِسْمِ «**عَبْدُ الله**»؛ فقَدْ أَحْصَيْتُ في الكِتابِ ما يَزيدُ علىٰ ٤٠٠ مَرَّةً جاءَ التَّمْثِيلُ فِيهَا بهذا الاِسْمِ، وهُوَ ما جَعَلَ اسْمَ الله تَعالىٰ أَكْثَرَ الأَسْماءِ دَوَرانًا في كِتابِهِ.

- **ثالثًا: مُراقَبَةُ الله، تَعالىٰ، في بَحْثِ لُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ**: ومُرادُنا مِنْ هَذا أَنَّ سِيبَوَيْهِ، ومَعَ أَنَّهُ الإِمامُ في النَّحْوِ المُسَلَّمُ لَهُ فِيهِ، إِلَّا أَنَّ الصَّنْعةَ النَّحْويَّةَ ما كانَتْ لِتُوَجِّهَ فِكْرَهُ إِلّا بالقَدْرِ الذي تُراعىٰ فِيهِ الدَّلالةُ القُرْآنِيَّةُ، وما يَنْبَغي للقُرْآنِ مِنْ قَواعِدَ في تَفْسِيرِهِ، وأُصُولٍ في تَأْوِيلِهِ، فلَمْ نَرَ سِيبَوَيْهِ في تَوْجِيهِ ما يَقَعُ فِيهِ التَّجاذُبُ بَيْنَ الإِعْرابِ، والتَّفْسِيرِ[(٢)] يَنْتَصِرُ لِلْإِعْرابِ ويُهْمِلُ مُقْتَضَىٰ التَّفْسِيرِ، بَلْ إِنَّ لَهُ في هَذا كَلِمةً خَلِيقَةً بأَنْ تُتَّخَذَ عُنْوانًا لِدِراسَةٍ مُسْتَفِيضةٍ في

---

(١) الكِتَابُ (١/ ٣٤١).

(٢) يُنْظَرُ: الخَصَائِصُ (١/ ٢٨٤)، وعِلْمُ إِعْرابِ القُرْآنِ (٢٤١).

وُجُوبِ مُراعاةِ مُعْرِبِ القُرْآنِ للمَعْنىٰ التَّفْسِيريِّ الذي يُسْتَفادُ مِنْ غَيْرِ اللُّغَةِ؛ بَلْ قَدْ فَعَلَ بَعْضُهُم ذَلِكَ، وكَتَبَ فِيهِ دِراسَةً مُمْتازةً؛ قالَ سِيبَوَيْهِ: «**إِنَّ النَّحْوِيِّينَ يَتَهاوَنونَ بالخُلْفِ إِذَا عَرَفُوا الإِعْرابَ**»[١]؛ وهَذا الـمُصْطَلَحُ «**الخُلْفُ**»، الذِي يَقُولُهُ سِيبَوَيْهِ، هُنَا، هُوَ: «**ما يَتَوارَىٰ مِنْ دَلالاتٍ سِياقِيَّةٍ حَالِيةٍ لا تَدُلُّ عَلَيْها البُنَىٰ اللَّفْظِيَّةُ التَّرْكِيبِيَّةُ لَكِنَّ الكَشْفَ عَنْها، والْتِماسَها فِي التَّحْليلِ اللُّغَويِّ أَسَاسٌ فِي حُصُولِ التَّمَامِ الدَّلاليِّ بُغْيَةَ كَمالِ الإِعْرابِ**»[٢]. والكَلَامُ، في هَذا، يَطُولُ لأَنَّ فِيهِ إِحَالةً علىٰ عِلْمٍ قائِمٍ بِذاتِهِ؛ هُوَ عِلْمُ إِعْرابِ القُرْآنِ الكَرِيم، وهُوَ عِلْمٌ يَقُومُ علىٰ أُصُولٍ، ويُبْنىٰ علىٰ ضَوَابِطَ تُوَجِّهُ الاِشْتِغالَ بِهِ[٣]، والأَسَاسُ فِيهِ هُوَ: ضَبْطُ آلَةِ الإِعْرابِ بِمَا يَخْدُمُ الدَّلالةَ الشَّرْعِيَّةَ الـمُضَمَّنَةَ فِي التَّرْكيبِ القُرْآنيِّ.

وخِدْمةُ الدَّلالةِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ مُرَاعاةُ لِـمُرادِ الله تَعَالىٰ مِنْ كَلَامِهِ، وتَعْظيمًا لِقَصْدِهِ مِنْهُ، وهُوَ مِمَّا نَبَّهَ سِيبَوَيْهِ نَفْسَهُ عَلَيْهِ حِينَ رَأَىٰ أَنَّ النَّحْوِيِّينَ يَتَهاوَنونَ فِيهِ، لِذَا رَأَيْنا الرَّجُلَ مُلْتَزِمًا جَمِيلَ الاِلْتِزامِ بِمُراعاةِ ما يَنْبَغي للقُرْآنِ الكَرِيمِ مِنَ العِلْمِ الشَّرْعيِّ الذي يَعْلَمُ سِيبَوَيْهِ نَظَرِيَّةً، وتَطْبيقًا بأَنَّهُ، وإِنْ كانَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ وَافِرٌ، إِلّا أَنَّهُ غَيْرُ مَعْدودٍ مِنْ عُلَمائِهِ. والذِي يُبْرِزُ لَنَا هَذا هُوَ إِمْساكُ آلَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ الوَاصِفةِ عِنْدَ كُلِّ تَرْكيبٍ قُرْآنيٍّ يَكْشِفُ التَّحْليلُ اللُّغَويُّ الـمُؤَصَّلُ بَيْنَ اللُّغَةِ، والشَّرِيعةِ عَنْ أَنَّهُ مُقْتَضٍ لِثَقافةٍ شَرْعِيَّةٍ لا يَرىٰ هُوَ وُجُوبَ أَنْ يَعْرِضَ إِلَيْها رَعْيًا لحدُودِ تَخَصُّصِهِ، وإِمْساكًا للنَّفْسِ عَنْ أَنْ تَقْفُوَ ما لا تَسْليمَ لَهَا فِيهِ؛ ولَسَوْفَ نَجْتَهِدُ في بَيَانِ هَذَا الـمَعْنىٰ في مِثْلِ:

- **تَوْجِيهُ ما خَالَفَ القِياسَ**: فمِنْ ذَلِك ما نَفْهَمُهُ مِنْ مَوْقِفِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿**ٱ غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم لج**﴾[٤]؛ وكانَ القياسُ: (إنَّ هَذَيْن)، وقَدْ جاءَ النَّحْويُّون، في تَوْجيهِ هَذا، بِأَقْوالٍ كَثيرةٍ يَجْمعُ بَيْنها شَيْءٌ واحِدٌ؛ هو الإِصْرارُ علىٰ ردِّها لِـمُقْتَضىٰ الصَّنْعةِ، دونَ مُقْتَضىٰ كَلامِ الله تَعالىٰ، علىٰ أَنَّالذي نَراهُ، والله تَعالىٰ أَعْلَمُ، هو حملُ الآيةِ عَلىٰ اللَّهْجةِ العَرَبيّةِ الـمَعْروفة، وأَنَّ ما سِواهُ،

١() الكِتَابُ، ٢/ ٢٦٥.

٢() مُصْطَلَحُ (الخُلْفُ) في كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، د. الـمُتَوَلّي مَحْمودٌ الـمُتَولّي عَوَضٌ حِجَازٌ، ص: ٣٦.

٣() يُنْظَرُ مُفَصَّلًا في: عِلْمِ إِعْرابِ القُرْآنِ، تَأْصِيلٌ وبَيَانٌ، د. يُوسُفُ بنُ خَلَفٍ العِيسَاوي، ص: ٢٤١.

(٤)سُورةُ طَهَ: ٦٩.

آتٍ مِنْ خَلَلٍ مَنْهَجيٍّ كَبيرٍ في بحثِ لُغةِ القُرْآنِ الكَريم؛ هُوَ التَّهاوُنُ الذي تَنزّهَ عَنْهُ سِيبَوَيْهِ، والخلل في وَجْهَيْن:

- **أوَّلُهُما**: تحكيمُ الضّيّقِ في الواسِع؛ علىٰ مَعْنىٰ تَحْكيمِ النّحْوِ، في التَّفْسِير، والتَّفْسيرُ أَوْسَعُ مِنَ النَّحْو؛ ومِنْ أُصُولِهم أَنْ «**لَيْسَ كُلُّ ما صَحَّ لُغَةً صَحَّ تَفْسِيرًا**»؛لِذا، فإنَّ الأيْسَرَ مِنْ كُلِّ أَقْوالهم، والأَدْنىٰ للتَّسْليم، هُوَ الحملُ علىٰ لُغَةِ بني الحارثِ بنِ كعبٍ التي تَلْزَمُ فيها إنّ صُورةً واحِدةً مَع اخْتِلافِ الإعْراب، كَما تَقَدّم؛ لأنَّ تَفْسِيرَ الآيةِ واقعٌ في ثَقافةٍ قُرْآنيّةٍ تَفْسِيريّةٍ، هِيَ أَوْسَعُ مِنَ النَّحْو؛ و هذا بَيَانٌ لِذَلِك:
- **ثانيهما**: عَدَمُ الرُّجوعِ بكَلامِ الله إلىٰ كَلامِ الله تَعالىٰ؛ فإنّه قدْ قصَّ القرآنُ الكريمُ عَنْ لقاءِ موسىٰ وفرعون وسَحَرتِه، في غَيْرِ (سُورةِ طه)، فقالَ تَعالىٰ في (الأعرافِ) علىٰ لِسَانِ الملأ مِنْ قومِ فِرْعَون: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾. وقالَ تَعالىٰ في (الشُّعَراء): ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾. والقصّةُ، في المَواضِعِ الثّلاثِ؛ الأَعْراف، والشُّعَراء وطَهَ، واحِدَةٌ، وفي مَوْصُوفٍ واحِدٍ، وضِمْنَ مَوْقِفٍ واحِدٍ، فهُوَ إمّا أنْ تَكونَ (إنّ) مُؤكِّدةً في كُلٍّ، أَوْ جوابيّةً في كُلٍّ، فالمَوْضِعان اللّذانِ في الأَعْرافِ، والشُّعَراء يُرَجِّحانِ التّوْكيدَ علىٰ أنْ تكونَ جوابًا، بلْ يَقْضِيانِ به قضاءً يجعلُ كلَّ نظرٍ فيها بعده غَيْرَ قويمِ البتّة، بل يجعلُهُ نظرَ مَنْ لا عِلْمَ له بأُصُولِ التّفسيرِ والبَيَان، ونحنُ، هُنا، نَتكلّمُ في العِلْم، لا في أَقْدارِ العُلَمَاء[1]، لذا؛ فإنّ في القَوْلَ بأَنَّها حَرْفُ جَوابٍ إخلالًا بالقاعدةِ الجزئيّةِ التي تتعلّقُ بإمْكانِ بيانِ المُفْرَدةِ بسياقٍ لها أوضحَ مِن الأوّل»[2]، مِنْ حيثُ أنّ اسْتِعْمالها في التّوكيدِ، في

---

(١) يَنْقُلُ السُّيُوطيُّ عَنْ أبي حَيَّانٍ في (الاقْتِراح، والإتْقَانِ)، قولَه: «**ولَسْنا مُتَعَبَّدينَ باتِّباعِ جُمْهُورِ البَصْرِيّين، بَلْ نَتَّبِعُ الدّليل**» (الإتْقان ٢/ ٣٨٤)، ويَقُولُ ابْنُ جِنّي، في (الخصَائِص): «**النَّحْوُ عِلْمٌ مُنْتَزَعٌ مِن اسْتِقْراءِ هذه اللُّغةِ فكلُّ مَنْ فَرَقَ له عَنْ عِلَّةٍ صحيحةٍ، وطريقٍ نَهْجَةٍ كان خَليلَ نَفْسِه، وأَبا عَمْرو فِكْرِه**». الخصائص (١/ ١٨٩).

(٢) تَفْسيرُ القُرْآنِ بالقُرْآن (٤٤٢).

الأعرافِ والشُّعَراء، أوضحُ مِنْه في طه، فوجبَ حملُ تَفْسيرِ مَوْضعِ «طه» علىٰ مَوْضِعَيْ الأَعْرافِ والشّعراء، والله تعالىٰ أعلمُ بالصّواب.

وبعدُ؛ فإنَّ مَأْتَىٰ هذا الانحرافِ هُوَ تَحْكيمُ التّخصُّصِ والصّنعةِ في التَّفْسِير، وهو مِنْ جُمْلةِ الاتّجاهاتِ المُنْحرفةِ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ الواجبِ دَفْعُها، كمَا في عِبارةِ الدُّكْتور مُحمّدٍ حُسَين الذّهبي؛ يَقولُ: «**وأَخِيرًا؛ وَجَدْنا كلَّ مَنْ بَرَعَ في فنٍّ مِنَ الفُنُونِ يَغْلبُ علىٰ تَفْسِيرِه، بصُورةٍ واضِحةٍ فنُّهُ الذي بَرَع فيه؛ فالنَّحْويُّ أَكْبَرُ همِّهِ الإِعْرابُ، وسَرْدُ مسائلِ النَّحْوِ، وفُرُوعِه**»[(١)].

- **وأَيْنَ سِيبَوَيْهِ مِنْ هَذا؟**

اللَّافِتُ لِلنَّظَرِ عِنْدنا أنَّ سِيبَوَيْهِ وهُوَ العارفُ بمكانِ الآيةِ، لَمْ نَرَ لَه شَيْئَيْن: أَوَّلُهُما: أَنَّهُ لَمْ يُشارِكْ في تَوْجِيهها، عَلىٰ الرَّغْمِ مِنْ تَناقُلِ الاِشْتِغالِ بها عِنْدَ بعضِ مُتَقَدِّميه، ومِنْهم أَبُو عَمْرِو بْنِ العَلاء، وهُوَ مِنَ الإِقْراءِ بحيثُ هُو، وقَدْ نُقِلَ عَنْهُ تَغْليطُ الكاتبِ فيها، وأَنَّهُ غَلَطٌ سَتُصْلِحُهُ العربُ بِأَلْسِنَتِها[(٢)]. ومنهم أَبُو الخطّابِ الأَخْفشُ الكَبير، وقولُه فيها: الحمْلُ علىٰ اللَّهْجةِ الكِنانيّة[(٣)]. ونُقولُ سِيبَوَيْهِ عَنْ أبي الخطّابِ كَثيرة، فَقَدْ بَلَغَتْ ٤٧ مَرَّةً، بَلْ إنَّ بعضَ مَنْ بحثَ أبا الخطّابِ اعْتَمَدَ نُقولَ سِيبَوَيْه عَنْه بصورةٍ كَبيرةٍ [(٤)]، ومَع ذلك لَمْ نَلْقَ سِيبويهِ أَبْدىٰ رَأْيًا في المَسْأَلة، فمَا تَفْسيرُ ذَلِك وما صِلَتُهُ بتَعْظيمِ الله تَعالىٰ؟ إنَّ غايةَ ما عِنْدَ الرَّجُلِ أَنَّهُ صَحَّحَ مجيءَ الحرفِ (إنَّ) بمَعْنىٰ (أَجَل) في كَلامِ العَرب؛ قَالَ: «**وأَمّا قولُ العربِ في الجوابِ (إنّهْ)، فَهُو بِمَنْزِلة (أَجَلْ)، وإذا وَصَلْتَ؛ قُلْتَ: إنَّ يا فَتىٰ، وهِيَ التي بِمَنْزِلةِ أَجَلْ. قالَ الشَّاعِرُ**[(٥)]:

بَكَرَ العواذلُ في الصَّبُو ... حِ يَلُمْنَني وأُلُومُهُنَّهْ

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلا ... كَ، وقَد كَبِرْتَ فقلتُ: إنَّهْ

ونحنُ نُفَسِّرُ هذا بمعرفةِ الرَّجُلِ حُدودَ صَنْعَتِه، ومَشْمولاتِ فَنِّه، ويَقينِهِ بأنَّ التَّرْكيبَ الذِي في الآيةِ، لَيْسَ بالذي يَكْفي فِيهِ الوَصْفُ النَّحْويُّ، ويَتعدَّاهُ إلىٰ الوَصْفِ الشَّرْعيِّ الذي

(١) الاتّجاهاتُ المُنْحَرفةُ في تَفْسِير القُرْآن، دَوافِعُها ودَفْعُها (١٦، ٣٩).
(٢) يُنْظَر: مَفاتِيحُ الأَغاني في القِراءاتِ والمَعاني (٢٧٤).
(٣) يُنْظرُ: حُجّةُ القِراءات (٤٥٤).
(٤) يُنْظرُ مَثَلًا: أَبُو الخطّاب الأَخْفَش الكَبير، حَياتُه-آراؤُه (٣٩).
(٥) الكِتابُ (٣/ ١٥١).

يَرىٰ الإِمْساكَ عَنْهُ أَلْيَقَ بحالِهِ؛ إذْ هُوَ في النّاسِ نَحْويٌّ، لا عالمُ قُرْآنٍ، ومِنْ هُنا فإنَّهُ، وإنْ صَحَّحَ صَلاحيَّةَ إنَّ للْجوابِ، إلّا أنَّهُ لَـمْ يَشَأْ أنْ يُشاركَ بِما عَلِمَهُ عَنْها في تَوْجِيه الآيةِ الكريمة، وهذا مَعْناهُ أنّه لا يَراها جَوابِيَّةً فيها، وإلّا فما أَحْراهُ بأنْ يحتجَّ بها حيثُ احْتَجَّ بالبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْن، فَبَقِيَ أنّه يَراها إمّا التي لِلتَّوْكيد، وأنّ الـمُثَنّىٰ مَعها في لُغةِ القَصْرِ عَلىٰ كلامِ بني الحارثِ بْنِ كَعْب، وهُو، في هذا، آخِذٌ، رُبَّما، بِرَأْيِ شَيْخِهِ أبي الخطّاب، وإمّا أنّه يَراها مَسْألةً في التَّفْسِيرِ، ويَلْزَمُ لها التَّوَفُّرُ علىٰ ثقافةٍ أصوليّةٍ خاصَّةٍ، هُوَ مَعَها أحدُ رَجُلَيْن؛ غَيْرُ الـمُتَوَفِّرِ عَلَيْها، أوْ هُوَ التّاركُها لِغَيْرِهِ رَعْيًا لحدودِ التَّخَصُّص، **وتَعْظيمًا لله تَعالىٰ بِتَعْظيمِ الكَلامِ في كِتابِهِ بما لَيْسَ مُسَلَّمًا لَهُ فيه.**

ومِنْ مَظَاهِرِ تَعْظيمِ سِيبَوَيْهِ لِكَلامِ الله تَعالىٰ في تَوْجِيهِ ما خَالَفَ القِياسَ النَّحْويَّ عَدَمُ طَعْنِهِ في ما جَاءَ مِنَ القِراءاتِ علىٰ تِلْكَ الحالِ؛ أَيْ لَـمْ تَكُنْ علىٰ اللُّغةِ الـمُطَّرِدةِ التي بُنِيَتْ عَلَيْها قَواعِدُ النَّحْو[1]، فالـمَعْروفُ عَنْ سِيبَوَيْهِ احْتِرامُ القِراءات، فلا عَابَ قارئًا، ولا خَطّأَ قِراءةً، ولا أَنْكرَ حَرْفًا ممّا صَحَّ النَّقْلُ بِه[2]، وتَنْبِيهُهُ علىٰ أَنَّ الأَصْلَ في القِراءةِ هُوَ النَّقْلُ الصَّحِيحُ، ولَيْسَ النَّحْو؛ وتَصْريحُهُ بأنَّ القِراءَةَ سُنَّةٌ مُتَّبَعةٌ؛ قالَ: «أَمّا قَوْلُهُ، عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، فإنّما هُوَ علىٰ قَوْلِهِ: زَيْدًا ضَرَبْتُهُ، وهُوَ عَرَبيٌّ كَثِيرٌ، وقَدْ قَرَأَ بَعْضُهم: «وأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْناهم»، **إِلَّا أَنَّ القِراءةَ لا تُخَالَفُ؛ لأَنَّ القِراءَةَ السُّنَّة**»[3].

---

(١) يُنْظَرُ: النَّحْوُ العَرَبيُّ، أُصُولُهُ، وأُسُسُهُ، وقَضَاياهُ، وكُتُبُهُ، د. مُحَمَّدٌ إِبْراهيمُ عُبَادةٍ، ص: ٢٤.

(٢) يُنْظَرُ: مَنْهَجُ سِيبَوَيْهِ في الاِسْتِشْهادِ بالقُرْآنِ الكَرِيمِ (٢٤١).

(٣) الكِتَابُ (١/ ١٤٨).

خاتمة

نتائج وتوصيات:

نَخْلُصُ، مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، إِلىٰ أَنَّ تَعْظِيمَ الله، تَعَالىٰ، قَدْ كانَ في حَيَاةِ سِيبَوَيْهِ، وعِلْمِهِ، مَعْنًىٰ ظَاهِرَ الوُجُوهِ، مُسْتَقِيمَ الشَّوَاهِدِ، بِمَا لا يَسْتَقِيمُ اسْتِغْرابُهُ؛ فالرَّجُلُ واحِدٌ مِنْ أَجْلِ عُلَمَاءِ الـمُسْلِمِينَ، والرَّجُلُ إِمَامُ العَرَبِيَّةِ الأَوَّلُ، والعِلْمُ بالعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهَمِّ الطُّرُقِ الـمُوصِلَةِ إِلىٰ مَعْرِفَةِ الله تَعَالىٰ، ولَقَدْ أَمْكَنَنا الوُقُوفُ عَلَىٰ مَظَاهِرِ تَعْظِيمِ الله، تَعَالىٰ، في حَيَاةِ سِيبَوَيْهِ، وفي عِلْمِ سِيبَوَيْهِ علىٰ أَنَّ الحَياةَ العِلْمِيَّةَ عِنْدَ الـمُسْلِمِينَ إِنَّما قامَتْ علىٰ أَسَاسٍ مِنْ تَقْوىٰ الله، والقَصْدِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الكَرِيم، وهَذَا مَعْناهُ أَنَّ الإِسْلامَ كانَ الـمُحَرِّكَ الأَسَاسَ للعَمَلِ العَقْلِيِّ فِيها، وما هُوَ بالـمُسْتَغْرَبِ، كَذَلِكَ؛ فإِنَّ العَرَبِيَّةَ لَـمْ تَكُنْ في يَوْمٍ، لُغَةَ بحثٍ، ولِسَانَ مَعْرِفةٍ إِلَّا بِمَجِيءِ الإِسْلامِ؛ وقَدْ نُقِلَ عَنْ أَبي عَمْرٍو قَوْلُهُ: «**كانَ الشِّعْرُ عِلْمَ قَوْمٍ لَـمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ أَصَحُّ مِنْهُ**».

والبَحْثُ في مَظَاهِرِ تَعْظِيمِ الله، عِنْدَ سِيبَوَيْهِ، يَنْتَهي إِلَىٰ أَنَّها مُوَزَّعَةٌ عَلىٰ:

١- نَشْأَتِهِ الـمُؤَسَّسَةِ عَلىٰ تَحْصِيلِ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ.

٢- أَخْذِهِ العِلْمَ عَمَّنْ عُرِفُوا بالصَّلاحِ، والتَّقْوىٰ، والخَلِيلُ رَأْسُهُمْ.

٣- سَلامَةِ اعْتِقادِ سِيبَوَيْهِ في رَبِّهِ؛ فلَمْ يُوقَفْ، في عِلْمِهِ، علىٰ ما يُفْسِدُ دِينَهُ بِرَأْيٍ كَلامِيٍّ مِمَّا يَحِيدُ عَنِ الـمَأْثُورِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ وصَحْبِهِ.

٤- تَعْظِيمِ الله تَعَالىٰ في:

- لُزُومِ الثَّنَاءِ علىٰ اسْمِهِ حَيْثُ يَرِدُ ذِكْرُهُ.
- لُزُومِ الاِسْتِثْناءِ؛ بِقَوْلِ: «إِنْ شَاءَ الله» عِنْدَ كُلِّ وَعْدٍ بما لَيْسَ كائِنًا وَقْتَ الكَلَامِ.
- لُزُومِ رَدِّ العِلْمِ إِلىٰ الله، تَعَالىٰ، في عَقِبِ كُلِّ قَوْلٍ في العِلْمِ بِقَوْلِ: «الله أَعْلَمُ».
- إِيثارِ التَّمْثِيلِ النَّحْوِيِّ بِمَا يَقْتَرِنُ باسْمِ الله تَعَالىٰ؛ نَحْوَ «جاءَ عَبْدُ الله»، وضَرَبَ، وفَعَلَ، وفَعَلَ، ما أَكْثَرَ مِنْ مَعْنىٰ العُبُودِيَّةِ لله في كِتَابِهِ، ومِنْ دَوَرانِ اسْمِ الله تَعَالىٰ فِيهِ.
- تَعْظِيمِ كَلَامِ الله تَعَالىٰ بِلُزُومِ مَنْهَجٍ في بَحْثِهِ يُراعِي فِيهِ الفَصْلَ بَيْنَ ما يَكْفِي فِيهِ التَّحْلِيلُ النَّحْوِيُّ، وبَيْنَ ما يَلْزَمُ فِيهِ أَدِلَّةٌ تَفْسِيرِيَّةٌ أُخْرىٰ مُشارَكَةٌ للنَّحْوِ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ.
- تَعْظِيمِ كَلَامِ الله تَعَالىٰ بِتَرْكِ القَدْحِ في القِراءَةِ التي لا تُوَافِقُ القِياسَ النَّحْوِيَّ، وعَدَمِ الطَّعْنِ في القُرَّاءِ، والتَّسْلِيمِ بِأَنَّ القِراءَةَ لا تُخالَفُ، وأَنَّها سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ.

هَذا، وغَيْرُهُ مِمَّا يَقُومُ دَلِيلًا قاطِعًا علىٰ أَنَّ سِيبَوَيْهِ ما كانَ لِيَبْلُغَ مَرْتَبَةَ الإِمَامةِ فيما اخْتَصَّ بِهِ مِنَ العِلْمِ، إِلّا بما امْتَلَأَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ تَقْوىٰ الله، وَمُراقَبَتِهِ، وبِما امْتَلَأَ بِهِ فُؤَادُهُ مِنْ تَعْظِيمِ الله تَعَالىٰ.

المصادر والمَراجِعُ

١- **أَبُو الخطّاب الأَخْفَشُ الكَبيرُ، حَياتُه-آراؤُه،** حَياةُ مُحَمَّدٍ مُصْطفىٰ عُقاب، بحثُ ماجِسْتير، إشْرافُ الدُّكْتورُ محمُودٌ محمَّدٌ الطّنّاحِيّ، جامِعةُ أمّ القُرىٰ، كُلِّيَّة اللُّغةِ العَرَبية، فَرْعُ اللُّغَويّات، ١٤٠٢-١٤٠٣هـ.

٢- **الاتّجاهاتُ المُنْحَرفةُ في تَفْسِير القُرْآن، دَوافِعُها ودَفعها،** د. مُحَمَّدُ حُسَينٍ الذّهَبيّ، مَكْتبةُ وَهْبة، مِصْر، الطّبْعة الثّالِثة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٣- **أُصُولُ النَّحْوِ العَرَبيّ، أُصُولُهُ وأُسُسُهُ وقَضاياهُ وكُتُبُه، مَع رَبْطِهِ بالدَّرْسِ اللُّغَويِّ الحَدِيث،** د. مُحَمَّدُ إِبْراهِيمَ عُبَادة، مَكْتَبةُ الآدابِ، القَاهِرة، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩.

٤- **الإِمَامُ الهُذَليُّ، ومَنْهَجُهُ في كِتَابِهِ الكَامِلُ في القِراءاتِ الخَمْسِين،** د. عَبْدُ الحَفِيظِ بنُ مُحَمَّدٍ نُورُ الهِنْدي، رِسالَةُ دُكْتوراه مَخْطُوطة، جامِعةُ أُمِّ القُرىٰ، كُلِّيَّةُ أُصُولِ الدِّين، قِسْمُ الكِتابِ والسُّنَّة، شُعْبةُ التَّفْسيرِ وعُلُومِ القُرْآن، العامُ الجَامِعيّ، ١٤٢٨هـ، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨،

٥- **إِنْباهُ الرُّواة عَلىٰ أَنْباهِ النُّحاة،** لجمالِ الدّين عَلي بن يُوسُف القِفْطي، تحقيقُ مُحمّد أبو الفَضْل إِبْراهيم، دارُ الفِكْر العَربيّ، القاهِرة، مُؤَسّسةُ الكُتُبِ الثّقافيّة، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦.

٦- **تَفْسِيرُ القُرْآنِ بالقُرْآن، دِراسةٌ تاريخيةٌ ونَظَريةٌ،** د. مُحمّد قَجْوي، الرّابطةُ المُحَمَّديّةُ للعُلَماء، ومرَكْز الدِّراساتِ القُرْآنية، الرّباط، المَغْرب، طَبْعُ مَطْبعةِ المَعارفِ الجَديدة، الرّباط، المَغْرب، الطّبْعة الأُولىٰ، ١٤٣٦هـ، ٢٠٠٢م.

٧- **الجامِعُ الصَّحيحُ (=صَحيحُ البُخَاري)**، للإمامِ البُخَاري، دارُ ابنِ الجَوْزي، القاهِرة، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ٢٠١١.

٨- **حُجّة القِراءات،** لأبي زَرْعةَ بْنِ زَنْجِلة تحقيقُ سَعِيدٍ الأَفْغاني، مُؤَسَّسةُ الرِّسالة، بَيْروت، لُبْنان، الطَّبْعة الخامِسة، ١٩٩٧.

٩- **الخَصَائِص،** لأَبي الفَتْحِ عُثْمانِ بنِ جِنِّي، تحْقيقُ مُحَمَّدِ عَليٍّ النَّجَّارِ، المَكْتَبةُ العِلْمِيَّة، مِصْر، (د.ت).

١٠- **الذَّريعةُ إلىٰ تَصانِيفِ الشِّيعة**، الشَّيْخُ آغا بُرْزُك الطَّهْراني، دَارُ الأَضْواء، بَيْروت. دُونَ تَاريخ.
١١- **سِيبَوَيْهِ إِمامُ النُّحاة**، عَليُّ النَّجْدي ناصِف، عَالَمُ الكُتُب، الطَّبْعةُ الثّانية، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
١٢- **شَرْحُ أُصُولِ اعْتِقادِ أَهْلِ السُّنّةِ والجَماعة**، لِهِبةِ الله بنِ الحسَنِ بنِ مَنْصورِ الطَّبَريّ اللاّلِكائي، تحقيقُ نَشْأَتْ بن كَمال المِصْريّ،
١٣- **صَحيحُ مُسْلم**، للإمامِ مُسْلمٍ، دارُ زاد للنَّشْرِ والتَّوْزيع، القاهِرة، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.
١٤- **طَبَقاتُ المُعْتَزلة**، أَحْمدُ بنُ يحيَ بنِ المُرْتَضىٰ، دارُ المُنْتَظر، بَيْروت، لُبْنان.
١٥- **طَبقاتُ النَّحْويّينَ واللُّغَويّين**، لأَبي بَكْرٍ مُحمّدِ بنِ الحسَنِ الزَّبيدي، تحقيقُ محمّدٍ أبو الفَضْلِ إِبْراهيم، دارُ المَعارف، مِصْر.
١٦- **عِلْمُ إِعْرابِ القُرْآنِ، تَأْصيلٌ وبَيانٌ**، د. يُوسُفُ بْنُ خَلَفٍ العِيساويّ، دارُ الصُّمَيْعي لِلنَّشْرِ والتَّوْزيع، الرِّياضُ، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ١٤٢٨ه، ٢٠٠٧.
١٧- **غَايَةُ النِّهايةِ في طَبقاتِ القُرّاء**، محمّدُ بنُ محمَّدِ بنِ محمَّدٍ بنِ عليٍّ بنِ الجزريِّ الدِّمَشْقيّ الشَّافِعيّ، شَمْسُ الدّين أَبُو الخَيْر، تحقيقُ بِرْجِسْتراسِر، دارُ الكُتُبِ العِلْميّة، ١٤٢٧، ٢٠٠٦.
١٨- **الكِتابُ**، لِسِيبَوَيْه، تحقيقُ: د. عَبْدُ السَّلامِ هارون، مَكْتبةُ الخانجي، القَاهِرة، الطَّبْعةُ الرّابِعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤.
١٩- **مَجْموعُ فَتاوىٰ ابنِ تَيْمِيّة**، تحقيقُ عامِرِ الجزّار وأَنْورِ الباز، دارُ الوَفاءِ للطِّباعَةِ والنَّشْرِ والتَّوْزيع، مِصْر، الطَّبْعةُ الثّالِثة، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥.
٢٠- **مَدارجُ السّالِكينَ بَيْن مَنازِل إِيّاك نَعْبُدُ وإِيَّاك نَسْتَعينُ**، لابْنِ قَيِّم الجَوْزيّة، تحقيقُ وتَعْليقُ محمّدٍ المُعْتَصِم بالله البَغْداديّ، دارُ الكِتابِ العَرَبيّ، بَيْروت، لُبْنان، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣.
٢١- **مَرَكْزِيَّةُ سِيبَوَيْهِ في الثَّقافةِ العَرَبيَّة**، أَعْمالُ النَّدْوةِ الدَّوْلِيَّة، تَنْظِيمُ شُعْبةِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ وآدَابها بكُلِّيَّةِ الآداب والعُلُوم الإِنْسَانِيَّة، بتِطْوان، بالمَمْلَكَةِ المَغْربيَّة، يَوْمَيْ الأَرْبِعاء والخَمِيس ١٤-١٥ رَبِيعٌ الأَوَّلَ ١٤٣٨هـ/ ١٤-١٥ مِنْ دِيسَمْبر ٢٠١٦.

٢٢- **مُصْطَلَحُ (الخُلْف) في كِتابِ سِيبَوَيْهِ**، د. المُتَولّي مَحْمودٌ المُتَوَلّي عَوَضٌ حِجَاز، جامِعَةُ أُمِّ القُرىٰ، مَكَّةُ المُكَرَّمَة، الرِّسَالة ٤٠٥، حَوْلِيَّاتُ الآدابِ والعُلُومِ الاِجْتِماعِيَّة، الحَوْلِيَّةُ الرَّابِعةُ والثَّلاثونَ، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤.

٢٣- **مَعْرِفةُ القُرَّاءِ الكِبارِ علىٰ الطَّبَقاتِ والأَعْصار**، لشَمْسِ الدِّينِ الذَّهَبيّ، دارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّة، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٢٤- **مَعْنىٰ لا إِلَهَ إِلَّا الله**، أبُو عَبْدِ الله بَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِ الله بنِ بَهَادِرَ الزَّرْكَشيّ الشَّافِعِيّ (المُتَوَفّىٰ: ٧٩٤هـ، تحقيقُ عَليِّ مُحْيِ الدِّينِ القَرَهْ راغي، دارُ الاِعْتِصام، القَاهِرةُ، الطَّبْعَةُ الثَّالِثَة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥.

٢٥- **مَفَاتيحُ الأغَاني في القِراءاتِ والمَعاني**، أَبُو العَلاء الكَرْمانيّ، دِراسةُ وتحقيقُ د. عَبْدُ الكريمِ مُصْطَفىٰ مُدْلِج، تَقْديم: مُحْسِن عَبْد الحميد، دَارُ ابْنِ حَزْم، مِصْر، الطّبْعةُ الأولىٰ، ٢٠٠٢.

٢٦- **مَنَاهِجُ اللُّغَوِيِّينَ في تَقْريرِ العَقِيدةِ إلىٰ نِهايَةِ القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْريّ**، د. مُحَمَّدٌ الشَّيْخُ عِلِيو مُحَمَّد، دارُ المِنْهاجِ للنَّشْرِ والتَّوْزيع، الرِّياضُ، ١٤٢٧هـ.

٢٧- **مَنْهَجُ سِيبَوَيْهِ في الاسْتِشْهادِ بالقُرْآنِ الكَريمِ وتَوْجِيهِ قِرَاءَاتِهِ ومَآخِذِ بَعْضِ المُحْدَثِينَ عَلَيْهِ، دِرَاسَةٌ نَقْدِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ وصَرْفِيَّة**، د. سُلَيْمانُ يُوسُفَ خَاطِر، مَكْتَبَةُ الرُّشْدِ ناشِرون، المَمْلَكة العَرَبِيَّةُ السُّعُودِيّة، الطَّبْعةُ الأُولىٰ، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م.

٢٨- **النَّحْوُ العَربيّ، نَشْأَتُه، تَطَوُّرُه، مَدارِسُه، رِجالُه**، د. صَلاح رَوّاي، دَارُ غَريب، القاهِرة، ٢٠٠٣م.

٢٩- **وَفَياتُ الأَعْيانِ وأَنْباءُ أَبْناءِ الزَّمَان**، لِشَمْسِ الدِّينِ بنِ خِلِّكان، تَحْقيقُ: إِحْسانُ عَبَّاسٍ، دارُ صَادِر، بَيْروت. دُونَ تَارِيخٍ.